

ثلاثية نجيب محفوظ

تتناول هذه الرواية في شبه مسح اجتماعى وتاريخى مفصل انعكاس أحداث حياة المجتمع المصرى من خلال قصة أسرة من الطبقة الوسطى فيما بين سنة ١٩١٤ - إلى ١٩٤٤ ، وإن كان هذا لا ينقى استيعابها الفترة التى استمر بعد ذلك حتى قيام ثورة ١٩٥٢ .

وهى من حيث التقاليد الاجتماعية والقيم الأخلاقية تصور فى أناة وصبر حياة تلك الأسرة المحافظة على السلطة الأبوية ، حيث كل شىء يخضع فى بيت أحمد عبد الجواد «خضوعاً أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هى بالسيطرة الدينية أشبه» ، حتى الحب نفسه يخضع لهذه السيطرة ، فهو - اى الأب - الذى خطب لياسين ، ورفض خطوبة فهمى لمريم ، وحين جاء ضابط لخطبة عائشة رفض فى صلف وكبرياء «لن تنتقل ابنتى إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لدى أن دافعه الأول إلى الزواج منها ، هو رغبته فى مصاهرتى أنا.. أنا.. أنا»^(١) .

وهى فى تقديمها لحياة هذه الأسرة تتناول كل ما يتعلق بأفرادها سمواً من التفكير فى الله والوطن حتى «الكالو» فى إصبع القدم . كما توضح كيف تحرر الأبناء من سيطرة السلطة الأبوية بالتدرج ، وتربط ذلك بالسياسة العامة للوطن ، إذ «فى نفس الوقت الذى شغل فيه

(١) بين القصرين: نجيب محفوظ، ط. مكتبة مصر ص ١٨٠.

الوطن بحريته كان ياسين دائماً بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك»، ثم تزداد هذه الحرية في الجيل الثالث- أحفاد أحمد عبد الجواد، فبعد المنعم يتزوج وهو طالب، وأحمد يتزوج من سوسن حماد دون موافقة الأم.

كذلك تتبع مراحل تطور علاقة المرأة بالرجل، وكيف كانت أمينة في البداية لا تتحرك حتى للكلام إلا بإذن زوجها، وبعد وفاة فهمي سُمح لها بزيارة المساجد والأولياء، وبعد زواج البنات سمح لها بزيارتهم. وقد حدث ذلك نتيجة لتطور التاريخ والفكر الاجتماعي. كما نجد الكاتب يربط الأحداث الاجتماعية بالسياسة، فخديجة حين تستقل بمطبخها تقول لها عائشة: «أنت سيدة مستقلة، عُقبى لمصر»^(١).

وخطبة حسن سليم لعائدة تصبح «خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير»^(٢).

الثلاثية تمثل ثلاثة أطوار فكرية مرَّ بها المجتمع المصري من حيث تكوينه السوسيولوجي والأيديولوجي: فبين القصرين تمثل مرحلة الإيمان المطلق والخضوع الكامل له.. ابتداءً من الإيمان بالله في مجال الدين وبسعد زغلول في ميدان السياسة، وبالأب «البطريارك» في محيط الأسرة. فالتوحيد والإيمان هنا مُطلق لا تشوبه شائبة شك. وقصر الشوق تمثل مرحلة التردد بين الشك واليقين، الحيرة بين الدين والعلم، فكل

(١) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ط. مكتبة مصر ص ٣٨

(٢) قصر الشوق ص ٢٨٧.

القيم قد اهتزت في نفس كمال: سواء القيم المتعلقة بالله أو بالحب أو بمكانة الأب، حيث «لم يبق إلا فراغ في الجامع وخيبة في القلب». ولم يستطع أن يخرج من حيرته برأى ولا من شكه بموقف، لذلك قالت عنه سوسن «إنه لا موقف له.. إنه مثل المثقفين البرجوازيين، يقرأ ويسمع ويتسائل، وقد تجده في حيرة أمام «المطلق». وربما بلغت به الحيرة حد الألم، ولكنه يمر سادراً بالمتألمين الحقيقيين في طريقه»^(١). وهذا ما يفسر قول كمال عن نفسه: «أنا الحائر إلى الأبد».

أما السكرية فتمثل الانتهاه لموقف لا يحيد عنه الإنسان بالنسبة لكل القيم والمبادئ. فهناك اليمينية الدينية التي يمثلها عبد المنعم الأخ المسلم، واليسارية المتطرفة يمثلها أحمد الرفيق الاشتراكي. وقد وجد كمال أن طريق أحمد هو ما كان يبحث عنه فتبعه مردداً «إني أؤمن بالحياة وبالناس، هكذا قال لي، وأرى نفسي ملزماً باتباع مثلهم العليا، مادمتُ أعتقد أنها الحق»^(٢).

على هذا يمكن أن نقول: إن المجتمع المصري هو (بطل) هذه الرواية، التي يمتزج فيها التاريخ الوطني بالتطور الفكري والحضاري، وما يفصح عنه كل هذا من تناقضات اجتماعية بين العام والخاص، سواء فيما يتصل بحركة المجتمع أم الأفراد. وأهم ما يلاحظ على الثلاثية هو التخطيط الفلسفي لمصائر الأحداث

(١) السكرية: نجيب محفوظ، ط. مكتبة مصر ص ٢٥٠.

(٢) السكرية ص ١٩٥.

والناس، ففكرة الرواية قد عاشت في ذهن الكاتب مدة طويلة حتى
نضجت، لذلك جاء «الميلاد» طبيعياً و«المولود» كائناً تام الخلقة
واضح القسمات. إذ استفاد فيها بمنهج العلم ومنطق الفلسفة وفنية
الأدب، فوجدنا البناء المتأنى يستمر طوال الرواية سرداً وحواراً. فأسلوب
الرواية يدل على هدوء في عرض الفكرة وتأن في بسطها وتقديمها، ليس
هناك انفعال طارئ يبصر لمحة من جوانب الموقف أو زاوية من إطار
الحدث، بل (رؤية شمولية) تستوعب جميع العناصر المختلفة بحسب
تكوينها في الواقع.

وقد ترتب على هذا الهدوء في عرض الرواية وتقديمها أن الحركة
الفكرية فيها أقوى من الحركة الدرامية، فالأحداث في كل جزء منها
لها ثابت معين. وإذا طرأ جديد يستقدمه إلى الحى، فحين يريد أن
يطلعنا على ظلم الإنجليز للأهالى ينقلهم إلى حى «بين القصرين»، لنشهد
ما يحدث منهم مع أفراد الأسرة كدلالة عامة لما يحدث لأبناء الوطن، ولعل
هذا ما يبرر أنه سَمَّى كل جزء منها باسم الحى الذى يستقطب الأحداث
ويحركها، ويقوم الناس فيه بالفكرة الرئيسية التى يريد أن يتناولها فى
جزء من الثلاثية. إنها إذن أشبه (بمسرحية) ذات ثلاثة فصول، يدور
كل فصل منها فى حى لنشهد السلوك مترجماً لأفكار البشر، وعلى هذا
فالثلاثية رحلة أدبية فى تاريخ المجتمع المصرى، أكثر من كونها حدثاً
يدور فى إطار أسرة.

هذه الرحلة يقدمها من خلال ثنائيات عدة متوازية سُغف بها من

قبل : فأمينة القديسة الطاهرة تقابلها هنية أم ياسين العاهرة. وفهمى
الوطني المتحمس الجاد يقابله ياسين اللاهى العابث. وعائشة الجميلة
الحبوبية تقابلها خديجة الدميمة الثرثارة. وكمال الحائر يقابله أحمد
وعبد المنعم المنتميان، وهما فى جدھما وانتمائھما غير رضوان فى
شذوذہ ووصولیتہ. كما أن هناك الحب العذرى الذى يحمل الحبيب
معنى القدسة تقابله اللذة الآثمة فى عالم البغايا. وسعد زغلول الوطنى
يقابله زيور الخائن.

بل إن الثنائيات قد تدخل فى إطار الفرد الواحد، فالأب صورته
الجادة المستدبة فى البيت غير صورته العابثة عند العوالم، وهذه وتلك
غير الصورة الخاشعة التى يلقى بها الله. ولعل هذا ماجعل ياسين يقول
عنه: «إنه معجزة! جسمه معجزة، وروحه معجزة، كل شىء فيه
معجزة حتى طول لسانه»^(١).

وياسين كما يرى وجوه تناقض شخصية أبيه، يلمح هذا أيضاً فى
شخصية الواعظ الذى «ليس خيراً من أبيه، بل هو على وجه اليقين
أمعن فى الضلال، إنه يؤمن بشيئين بالله فى السماء، وبالغلمان فى
الأرض»^(٢).

وتتعدى هذه الثنائيات دائرة البشر إلى دائرة الأحداث، ففي
الليلة التى يعتدى فيها ياسين على نور جارية زوجته، وأبوه على

(١) بين القصرين ص ٤٠١.

(٢) بين القصرين ص ٤٧٤.

أم مريم جارتهم يحضر الإنجليز إلى الحى. فشل زواج ياسين من زينب يُوازى فشل الشعب فى المطالبة بالاستقلال واعتقال سعد وموت فهمى. ياسين يبحث عن حرية الشخصية، فى الوقت نفسه الذى طالب فيه الوطن بالحرية والاستقلال. كمال يفقد إيمانه وحبه فى الوقت نفسه الذى يعرف فيه حقيقة والده، ضعف الآمال فى ائتلاف قادة الوطن يقابله ميلاد طفلة لعائشة ضعيفة القلب!. وحين يتساءل عبد المنعم فى السجن:

- أيزج بى إلى هذا المكان لا لسبب إلا أنى أعبد الله؟

يجيبه أخوه أحمد: وماذنبى أنا الذى لا أعبده؟! «^(١).

فهذه الثنائيات العديدة فى الرواية تثيرها وتغنيها بالدلالة، وتمزج الخاص بالعام مزجاً طبيعياً، بحيث يستمد كل منهما من الآخر إحياءات قوية، تكسب الرواية بعض أسرار امتيازها، لأنها بهذا تتجاوز محيط الأفراد إلى إطار الوطن، وتقدم نموذجاً لقدرة البشر على فهم الواقع وتطويره لإرادتهم.

تمتاز الرواية أيضاً بالبراعة فى تقديم الشخصية الروائية، فمع أن المؤلف قد تناول فيها ما يقرب من مائة شخصية، فإن لكل منها سماته الخاصة وملامحه الذاتية التى تفرده عن غيره، والشخصية لا تدخل عالم الثلاثية إلا حين يتطلبها الموقف بالحاح، لتؤدى دوراً محدداً فى بناء الرواية. وهو لا يعطينا كل جوانب الشخصية فى أول موقف نلقاها

(١) السكرية ص ٣٨٤.

وانما يقدمها على مراحل، وإن كان هذا لا ينفي أنه أعطى منذ اللحظة الأولى السمة المميزة لها، وقدم مفتاح شخصيتها الذي يبرر فيما بعد الكثير من تصرفاتها.

أول شخصية تطالعنا في الرواية هي شخصية أمينة، حيث يعقد فصلاً يقدم فيه برنامجها اليومي والمسائي، لنكتشف بعض ملامح شخصياتها، وجوانب إطار مكوناتها الفكرية التي تبرر موقفها من «سيدها» الزوج، ثم يأتي الحدث الروائي والحوار ونجوى النفس وحديث الآخرين ليكشف لنا في مواقف معينة مختلفة، لا عن سمات الشخصية فحسب، بل عن مراحل تطورها الفكرية والاجتماعية أيضاً. إنه يقدم الشخصية وقد أخذت من الواقع ما استطاع به الفنان أن ينقلها من مستوى الفرد إلى درجة «النموذج» والنمط الإنساني الشامل. كما تكون الشخصية أيضاً الكثير من سماتها عن طريق علاقتها بالآخرين، وتمضى في ذلك متحررة من كل قيد إلا ما تصبح به حية في رواية. وقوة الروائي في هذه الناحية تكمن في أنه يخضع الشخصية لمنطق الحتمية الذي تقضى به عوامل الوراثة والبيئة. وهو يتتبع عوامل الوراثة- التي أخذها عن (المدرسة الطبيعية) كما يمثلها إميل زولا- بين مريم وأمها، حيث الشذوذ الأخلاقي وانعدام الحصانة، كما يتتبعها في أمينة ابنة الشيخ العالم والأم الصالحة، وفي ياسين الذي ورث عن أبيه

حب اللذة وعن أمه نوعها المتدنى المنحط. ثم إن رضوان ابنه يشذوذه
الجنسى ثمرة مرة لطلاق الأم ورعونة الأب وفسقه.

والكاتب في تقديمه للشخصية سواء أكانت رجلاً أم امرأة - يجعلها
تلتزم حدودها في الفكر والسلوك، بحيث تبدو متنسقة مع نفسها ومع
طبيعة المناخ الزماني المكاني الذي تعاشه. والشخصية في حدود
إمكانياتها وطبيعتها، تبدو حتى عند قمة أزماتها منتمية إلى الواقع
الاجتماعي الذي تتحرك فيه، فكما الذي يمثل فورة الشك وذروة
الحيرة لا يسلمه تحطم المثال إلى الضياع أو الانغلاق حول الذات، وإنما
يردد: «عايدة ذهبت فيجب أن أخلق عايدة أخرى بكل ما ترمز إليه
من معان، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها»^(١).

واستمر يبحث للحياة عن معنى جديد، حتى وجد المعنى واستبان
له الطريق.

الشخصية الروائية في الثلاثية أيضاً واعية بحركة المجتمع من
حولها، فالسياسة والفكر تدور بين الناس حتى في أوقات اللهو
وسهرات الشرب واللذة. فحين يذكر السيد أحمد عبد الجواد لرفاقه
عند زبيدة أنه قد أصيب بضغوطم، يقول لهم عبد الرحيم: «أنا أقول
لكم سرّه، إنه من أعراض الثورة، وآى ذلك أنه لم يسمع به أحد قبل
اشتعالها»^(٢). وحين يعجب كمال بصوت الحبيبة على رغم أنها ترطن

(١) قصر الشوق ص ٣٨٦.

(٢) قصر الشوق ص ٤٣٥.

بالفرنسية يقول:

– جميل حقاً، سبحان الله العظيم.

فقال حسين ضاحكاً: إنك تجد دائماً وراء الأمور: إما الله وإما سعد

زغلول^(١).

لا يتحرك الأشخاص إذن في فراغ ولا يعيشون في اوهام ذاتية، بل يَعُونَ – في الغالب – الحركة الدائرة للمجتمع بكل أطرها وموقفهم منها وأثارها عليهم.

وقد ترتب على ذلك ميزة يختلف فيها الروائي الواقعي عن معاصره من الرومانسيين الجدد الذين لم يروا إلا وجهاً واحداً للشخصية، أما هنا فهي إنسان يتحرك بكل ما يتحرك به البشر، ففيها نقاء الملائكة وشهوة الحيوان ولؤم الشيطان، أي فيها العناصر المختلفة التي يتشكل منها سلوك الكائن البشري، لذلك يقول ياسين لكمال مدافعاً عن جانب العبت في شخصية والده:

– حب النساء والخمر ليس من الفساد في شيء.

– وكيف تفسر سلوكه على ضوء إيمانه العميق؟

– وهل أنا كافر؟ وهل أنت كافر؟ وهل كان الخلفاء كفرة؟ الله غفور

رحيم...^(٢) وكمال المحب العذرى – الذى يتناول الكوب عساه يشرب

من مكان سبق أن شربت منه الحبيبة – هو نفسه الذى يمارس الإثم مع

(١) قصر الشوق ص ١٩٩.

(٢) قصر الشوق ص ٤٠٢.

«وردة» و «عطية»، ويشرب الخمر، ويناقد قضايا الفكر والعلم والفن والاشتراكية، ويتحدث عن الوطن والسياسة ومستقبل الحرية ومصير الإنسان.

شيء آخر تمتاز به الثلاثية وهو أنه سبق أن خطط لها بعناية، لا تخلو من المصادفة، ولكنها ليست كل شيء فيها، إنها موجودة بالقدر الذى توجد به فى الحياة، وعند وجودها فإنها تعطى الموقف فلسفة خاصة، فالوالد يلقى الجمعة مع ياسين ليكتشف أن فهمى عضو فى اللجنة المركزية للطلبة. وخديجة تزور آل شوكت ليكون ذلك سبباً فى زواجها من خليل. كمال يلتقى بياسين عند وردة ليعرفه حقيقة والده واستمرار طبيعته فيهما. وكمال يؤمن بأهمية المصادفة، وما يمكن أن يترتب عليها فى حياة البشر.. «المصادفة هى التى لعبت فى حياتك أخطر الأدوار، لو لم أصادف ياسين فى الدرب لما انقشعت عن عيني غشاوة الجهل، لو لم يجذبني ياسين على جهله إلى القراءة لكنت اليوم فى مدرسة الطب كما تمنى أبى، لو التحقت بالسعيدية ما عرفت عايده، ولو لم أعرف عايده لكنت إنساناً غير الإنسان، وكان الكون غير الكون، ثم يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتماده على المصادفة فى تفسير آلية مذهبه»^(١). إن الرواية الرومانسية تشكل المصادفة القدرية الساذجة فى بنائها العام، أما هنا فهى - المصادفة - موجودة بالقدر الذى توجد به فى الحياة الواقعية، كما أن تقبل الأشخاص لها ليس تقبلاً سلبياً، وإنما تقبلاً الواعى الذى له إرادة تساعد على توجيه

(١) قصر الشوق ص ٤٠٢.

مصيره والتحكم في إرادته.

وقد تتبع الكاتب في أناة مصائر جميع البشر، الذين ورد ذكرهم في الرواية على كثرتهم، سواء فيما يتصل بأبناء أحمد عبد الجواد وحفدته - شذوذاً وسواء - أم بقية الشخصيات سواء أكانوا رئيسيين أم ثانويين، ومن هنا تعرفنا الرواية كيف استطاعت جليلة أن تعمل حساب الزمن وتصبح ذات ثروة وتحج، في حين تفقد زبيدة كل شيء حتى شعر رأسها، والشيخ متولى عبد الصمد نلقاه عند دفن جثة السيد أحمد وقد ذهب عقله، وفي هذا رمز لأثر موت السيد واضطراب الأحوال العامة.

أى إن الكاتب قد صمم البناء الفني للرواية بدقة، وتتبع مسار كل خط يمتد من مركز دائرتها. ليست هناك شخصية زائدة أو حدث لا مبرر له. وإنما هناك اتساق في بناء الحدث ووضوح في خط سير الشخصية، بحيث يبدو الجميع على اختلافهم، وكأنهم جوقة تقدم نشيداً واحداً أو فرقة موسيقية تعزف سيمفونية رائعة.

وهي تشبه ما أطلق عليه «ألبيريس» الرواية ذات الأصوات المتعددة، التي يقدم مثلاً لها رواية توماس مان - آل بودنبرك - «والتي نجد فيها عذوبة الأفكار المحلية وتناغم أصواتها، وهي تاريخ أسرة، إلا أن هذا الموضوع البرجوازي يتجاوز نفسه: فتاريخ أسرة يشكل نوعاً من الصور المصغرة للعالم، وعلى سعيد الإنسان أيضاً يعكس كل الحياة العضوية للبشرية، وحين نجعل التطور التاريخي ومصائر الأفراد يتداخلان ضمن بيئة مغلقة، نحصل على تأليف موسيقى مدهش»^(١).

(١) تطور الرواية الحديثة ألبيريس، ترجمة جورج سالم، ص ١١٨.

تمتاز الثلاثية أيضاً بالروعة فى تسجيل عادات الأسرة البرجوازية، وبيان الحدود التى كانت لشخصية الأب والأم والأبناء والبنات، وكيف كان كل منهم يمارس حياته ويحقق وجوده. كما توضح علاقة المرأة بالرجل على اختلاف وظائفها: زوجة وأماً وابنة وعشيقة وعاهرة فى أكثر من جيل. إنها تستحضر حركة الناس فى البيت والعمل ومجالس اللهو على اختلافها، بل تصحبنا إلى أماكن العبادة والعبث ومختلف الطبقات المجتمع ورجال السياسة. وتطلعنا على كل ما يدور فى المجتمع، لذلك فإن فيها (مادة خصبة للباحث الاجتماعى) الذى يريد أن يعرف عادات المجتمع المصرى فى هذه الفترة التى عاشها الكاتب بالفعل، إذ هو من مواليد ديسمبر سنة ١٩١١.

وقد ساعد الكاتب على هذا- كما أشرنا- أنه قد استفاد من كافة المذاهب الفنية ومن الثقافة الواسعة التى حصلها من الفلسفة والسياسة، ومن مناهج العلم ومذاهب الأدب العربى والغربى خاصة الإنجليزى، حيث قرأ من خلاله كثيراً من الروايات الفرنسية والروسية. ونجده فى الثلاثية يمزج بين رصانة الرواية الفرنسية وعنايتها بالصياغة والوصف، وبين واقعية الروسية من حيث الاهتمام بالوصف الشعبى والنماذج العادية المألوفة، وعناية الرواية الإنجليزى بوصف المدن والأحياء واستلهام التاريخ.

كما يعكس فى هذه الرواية الاستفادة من بعض المذاهب الأدبية، حيث نجد الرومانسية فى قصة حب كمال لعائدة التى تتجاوز المألوف

العادي إلى المثالي المقدس : فحين تنطق الحبيبة باسمه يحدث نفسه .. « أتذكر ذلك النداء الذي نزل على غير انتظار؟ أعنى أتذكر النعمة الطبيعية التي تجسمها؟.. لم يكن قولاً ، ولكن نغماً وسحراً استقرا في الأعماق كي يعزف دوماً بصوت غير مسموع ، ينصت فؤادك إليه في سعادة سماوية لا يدريها أحد سواك ، كم روعةٍ وأنت تتلقاه ، كأن هاتفاً من السماء اصطفاك فردد اسمك ، سُقيت المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله في نهلة واحدة ، وددت بعدها لو تهتف مستنجداً : «زملوني.. دشروني»^(١).

هذه الرقة في وصف الحب والقداسة في الحديث عن المحبوب بدرجة يصبح فيها الحب فوق القيم ويرتفع الحبيب إلى درجة المعبود- لذا كانت عايده مثلاً لكل ما ينشده من كمال ، ورمزاً لكل ما يبحث عنه من مثل - فهذه سمات رومانسية واضحة. ومن الواقعية نجد تصوير الحياة العادية للناس بالإضافة إلى اتخاذ موقف ذي نظرة شاملة في عرض الأحداث. إن الأحداث ليست غاية في ذاتها - برغم ما قد يبدو فيها من طرافة وحيوية - فالكاتب يتخذ موقفاً في عرضها ، حتى تبرز على هيئة توضيح حقيقة معينة ، تلك الحقيقة هي أن التطرف إلى اليمين أو اليسار لم يصل بالظروف السيئة إلى حل ، وأصبح الموقف يتطلب مزيداً من الثورية وسبيلاً آخر لكشف الأزمة ، وهذا ما عبر عنه الرمز الذي أطل على المسجونين من نافذة السجن ومولد الطفلة في نهاية

(١) قصر الشوق عد ٢٢.

الثلاثية مع موت الأم أمينة، وهنا تجاوزت الرواية مجال الواقعية النقدية إلى الواقعية الاشتراكية المتفائلة.

وقد استفادت الثلاثية أيضاً من المذهب الطبيعي: ^(١) من حيث تتبع أثر الوراثة والبيئة على حياة الأفراد - كما أوضحنا، والتتبع الحزين لرحلة الإنسان في الحياة ومايصاحبها من ألم وعذاب، بذلك تبدو الرواية وكأنها (مأساة ملحمية) لأسرة برجوازية سحقها المجتمع وفتتها الزمن، فالآلام الفردية لأسرة السيد أحمد عبد الجواد تتوالى في مجال العلاقات الاجتماعية والقيم الإنسانية وهي في الوقت نفسه ليست محنة أفراد، وإنما هي (أزمة مجتمع) في مرحلة معينة من تاريخه. أكثر من هذا أنها تغذت من (الأنواع الأدبية) كلها.. ففيها من الشعر عذوبته ورقته، خاصة حين يحدثنا عن قصة حب كمال وعائدة، ومن المسرح محاولة الاستقطاب للأحداث والشخصيات في مكان بعينه، والقدرة الفائقة على إدارة الحوار المركز الموحى وتتبع سمات المنطق الجدلي في المناقشة. والحوار برغم أنه قليل الحجم إذا ما قيس بالمساحة العريضة للرواية (حوالي ألف وأربعمائة صفحة)، فإنه واضح الدلالة مركز العبارة لا يسمح فيه الكاتب بأي معنى جانبي، لا يخدم الحدث الأساسي أو الفكرة الرئيسية التي يعبر عنها.

(١) يذهب ألبيريس إلى أن المذهب الطبيعي «ليس مجموعة من النظريات الأدبية- بل موقفاً واختياراً يقوم به الروائي، ورؤية المصير البشري، وقد استحوذ عليه شكلياً الاهتمام بالتصوير الاجتماعي وواقعياً الشعور المأسوي بالمصير» تطور الرواية الحديثة.

كذلك فإن الكاتب قد استفاد في كتابة الثلاثية من منهج الفلسفة وطبيعة العلم، سواء في دراسته للحدث أم في تقديمه للشخصية واستخدامه الدقيق للغة. وإذا كان هناك تساؤل عما أفاده كأديب من العلم؟ فالجواب ما ذكره في الرواية من أنه «أخذ من العلم للفن عبادة الحقيقية والإخلاص لها ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة، والنزاهة في الحكم والتسامح الشامل مع المخلوقات.»^(١)

كل هذه الوسائل الفنية والفكرية استعان بها نجيب محفوظ في تقديمه للثلاثية التي تعد رواية من روايات «الأجيال» التي تصور الحياة في أكثر من جيل.

كما أنها تعد أيضاً رواية «عالمية».. تصل إلى كونها (نصاً أدبياً خالداً) بكل ما يحمله الخلود من دلالات.

(١) السكرية ص ١٧٩.